الحقل الدلالي للفظ « الحجاج »

تعرف العربية مجموعة كبيرة من الألفاظ التي تقترب في دلالتها من لفظة « الحجاج ». ويمكن ترتيب هذه الألفاظ على النحو الآتي :

1. الجدل :

أقرب الألفاظ دلالة للفظ « الحجاج » هو لفظ « الجدَل ». وهو مشتق من « الجدْل » الذي هو الإحكام في الفتل. قال ابن منظور: " الجَدْل: شدة الفتل، والجَدَل: اللددُ في الخصومة والقدرة عليها". وكذلك يقول ابن فارس : " الجيم والدال واللام أصل واحد وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام ".

ومن هذه التعاريف يمكن أن نقف على دلالتين دقيقتين تميزان الجدَل من غيره :

الدلالة الأولى : هي دلالة الشدّة. وبهذا الاعتبار يكون في الجدل شيء من التعصّب والإصرار على نصرة الرأي بالحق وبالباطل، والتعسف في إيراد الشبه والظنون حول الحق إذا صدر من الغير.

الدلالة الثانية : هي دلالة التمادي والاسترسال في مطاولة الخصم. ولا يكون ذلك إلا إذا كان هناك تباين شديد في وجهات النظر، مع استحكام الخصومة بين الطرفين. ويظهر هذا المعنى في اشتقاق ابن فارس للفظ « الجدول »، الذي هو مسيل الماء، قال : والجَدْوَل: نهر صغيرٌ، وهو ممتدٌّ، وماؤُه أقْوى في اجتماع أجزائه من المنبطح السائح. وفي هذا المثال يظهر اجتماع المعنيين معا، وهما : دلالة الشدة والاستحكام، ودلالة التمادي والاسترسال. وفي القرآن الكريم : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا. وقال : وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ.

2. الحوار :

أما اللفظ الثاني القريب من لفظ « الحجاج »، فهو لفظ « الحوار ». والحوار في اللغة : مراجعة الكلام،. وفي لسان العرب " هم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام. والمحاورة : مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة ".

وينعدم في هذا التعريف معنى الشدة، التي وجدناها في لفظ « الجدل ». ولذا فالحوار مراجعة للكلام بين طرفين أو أكثر دون وجود خصومة بينهم بالضرورة. وفي القرآن الكريم : فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا. فورد لفظ الحوار على سبيل الحال المصاحبة، دون أن نلمس فيها عنفا أو شدّة.

3. البرهان :

و« البرهان » هو الحجة الفاصلة، التي يأتي بها المتكلم لينهي كل حجاج. قال ابن منظور : " البُرْهان الحُجّة الفاصلة البيّنة. يقال بَرْهَنَ يُبَرْهِنُ بَرْهَنةً، إذا جاء بحُجّةٍ قاطعة لِلَدَد الخَصم ".

أما من الناحية المنطقية فإن " البرهان هو القياس المؤلف من اليقينيات [أي المقدمات اليقينية]، سواء كانت ابتداء، وهي الضروريات، أو بواسطة وهي النظريات ".

ونفهم من هذه التعاريف أن البرهان هو الحجة، والحجة هي البرهان. والاختلاف الوحيد بينهما، هو في النوع وفي الكيف.

أما من جهة النوع فإن فإن الحجة قد تستند إلى مقدمات غير يقينية، بينما البرهان لا يمكن له أن يستند إلا على مقدمات يقينية.

أما من جهة الكيف فإن الحجة لا تميل إلى الصفة القطعية النهائية، بينما البرهان يميل إلى الحسم والقطع.